الأول من أيار:

مسيرة قرن من النضال البروليتاري الأممي والانتصارات المتتالية

الطبقة العاملة العربية ومهمة انتشال الثورة من هيمنة قوى الثورة المضادة

■ بسام ابو عدنان ■

هل الحديث عن الاضراب العام الذي اعلن في الاول من ايار عام ١٨٨٦ ، وقبل الحديث عن اجتماع الرابع من ايار الاحتجاجي والقتيلة التي اتحدها الراسماليون ذريعة لاصدار احكام الاعدام لبعض قادة الحركة العمالية النقابية واغتيال البعض الاخر وزج الاحياء منهم في السجون لمدد طويلة.. قبل ذلك كله ينبغي الحديث عن الجهة التي قررت تكريس الاول من ايار عيدا امميا للعمال قاطبة والاسباب الداعية لذلك . وبعبارة اخرى قبل ذلك كله لا بد من الحديث عن حركة الطبقة العاملة ومسيرتها النضالية :

الاممية الثانية تقرر اعتبار الاول من ايار عيدا امميا للعمال

امام تصاعد موجه الاضرابات وتعاظمها خلال فترة سنينيات القرن التاسع عشر ، فقد لجأ راسماليو كل من بريطانيا وامريكا الى فتح ابواب الهجرة العمالية بغية استقدام العمال الاجانب واستخدامهم لتحطيم الاضرابات ، الامر الذي دعا النقابات العمالية في هذين البلدين الى العمل الجدي من اجل تحقيق وحدة نضال الطبقة العاملة الاممية ، وتعبيرا عن هذه الحاجة فقد تم ، في عام ١٨٦٢ ، لقاء بين العمال البريطانيين والفرنسيين ، بحثوا فيه مسائل عديدة تتعلق بتحديد ساعات العمل ومستويات الاجور وقضية استيراد الايدي العاملة الاجنبية الرخيصة واتفقوا على ضرورة الدعوة لعقد مؤتمر تاسيس جمعية عمالية دولية . وبعد مضي فترة على هذه الاتصالات والاتصالات ، وعلى وجه التحديد في ١٨٦٤/٩/٢٨ ، تم عقد الاجتماع التاريخي الاول لتاسيس الاممية الاولى، وكلف كارل ماركس بصياغة دستورها .

وفي بيانه الافتتاحي اكد معلم البروليتاريا الخالد ، على (ان تحرير الطبقة العاملة لا يمكنه الا ان يكون من صنع الطبقة العاملة نفسها) (١) ، وان اساس العبودية والشقاء الاجتماعي ، يكمن في خضوع العامل اقتصاديا لمالكي وسائل الانتاج ومحتكري سبل العمل ، ولذلك فان مهمة احزاب الطبقة العاملة ، تتجلى في النضال من اجل تحرير العمال وسائر الكادحين من نير النظام الراسمالي البغيض . بيد ان تحقيق هذه المهمة يتطلب تضامن العمال ووحدتهم على النطاقين الوطني والدولي . وما لم يتحقق هذا الشرط فان الفشل سيكون مآل الجهود المبذولة في هذا السبيل .

وقد استخلص هذه النتيجة الهامة ، من العزيمة التي عبرت بها الطبقة العاملة في ثورات ١٨٤٨ ، والتي ادت الى ازدياد الاضطهاد والقمع للحركة العمالية وتنظيماتها وصحافتها . ومع ان الاممية الاولى لم تعش سوى تسع سنوات وقد حلت نفسها رسميا بعد مضي اثني عشر عاما على قيامها بقرار من مؤتمر فيلادلفيا الذي انعقد في عام ١٨٧٦ ، غير ان نضال العمال لم يهدأ رغم افتقاده لمرشده الاممي .

يقول فريدريك انجلس : يوم رفعنا شعار « يا عمال العالم اتحدوا » في عام ١٨٤٨ ، لم يتجاوب معنا سوى بضعة اصوات فقط . (ولكن لم يحن يوم ٢٨ ايلول (سبتمبر) عام ١٨٦٤ ، حتى كان العمال من اكثر اقطار اوروبا الغربية يحدون ويؤلفون جمعية الشغيلة العالمية ذات الذكرى المجيدة . ان الاممية نفسها لم تعش سوى تسع سنوات .

اما التحالف الابدي الذي انشأته بين عمال جميع البلدان ، فليس ادل من يومنا هذا نفسه على انه لا يزال موجودا وانه الان اقوى منه من اي وقت مضى .

في اللحظة التي اكب فيها هذه السطور ، تستعرض البروليتاريا الاوروبية والامريكية قواها الكفاحية التي تنظم لاول مرة في جيش واحد ، وتحت علم واحد ، وفي سبيل هدف مباشر واحد : هو تحديد يوم العمل العادي بثماني ساعات تحديدا مشروعا ، هذا اليوم الذي طالب به مؤتمر الاممية المنعقد في جنيف عام ١٨٦٦ وطالب به من جديد مؤتمر العمال المنعقد في باريس عام ١٨٨٩ . وان مرأى هذا اليوم سوف يبين للراسماليين وكبار اصحاب الاراضي في كل الاقطار ، ان عمال العالم متحدون الان اتحادا حقيقيا فعليا . الا ليت ماركس الى جانبي ليرى بعينيه كل هذا) (٢) !

لقد جاء قول انجلس هذا في المقدمة التي كتبها للطبعة الالمانية للبيان الشيوعي في الاول من ايار عام ١٨٩٠، حيث كانت المظاهرات تعم البلدان الراسمالية احتفالا بالعيد لاول مرة، وقد قامت تلك المظاهرات التي طالبت بتحديد ساعات العمل بثماني ساعات **بناء على قرار الاممية الثانية القاضي باعتبار الاول من ايار عيدا عالميا للعمال، والمتخذ في مؤتمرها التاسيسي الاول، المنعقد في ١٤ تموز سنة ١٨٨٩** في الذكرى السنوية المئة لتحطيم الباستيل والذي حضره ممثلون عن ٢٢ بلدا والذي اختتم اعماله بمظاهرة زارت مقبرة شهداء الكومونة ، وباعلان تاسيس الاممية الثانية التي جاء انشاؤها تعبيرا عن تنامي الحركة العمالية ، لبلهم الكادحين وبدفعهم لتصعيد نضالهم الثوري من اجل استلام السلطة) (٣) وبناء الاشتراكية على انقاض سلطة الاستغلال والاضطهاد، البرجوازية الرجعية .

الاول من ايار: مراجعة لاستخلاص الدروس وخطة نضال للمستقبل

ان اتحاد العمل الاميركي هو الذي قاد حركتهم الاممية وصلبها) (٤) . وعلى اساس ذلك الدروس قامت الاممية الثانية التي واصلت النضال حتى الحرب العالمية الاولى حيث انحرف بها تيار الاصلاحيين وحولها الى واجهة للانهيار ووزارة لتحريف الماركسية واقرانها من مضامينها الثورية ، الامر الذي دفع لينين الى **انشاء الاممية الثالثة (الشيوعية) رسميا بعد قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى** . وها هي الطبقة العاملة اليوم تستند في نضالها الى مجمعاتها الاشتراكية التي تستقطب اكثر من ثلث البشرية . لقد احدث كفاح الطبقة العاملة انقلابا حدريا في طبيعة العصر، فبعد ان كانت الطبقة البرجوازية تقف في مركزه وتطبعه بطابعها الامبريالي . تحجب الطبقة العاملة، في بحر الثماني والتمانين سنة الماضية . **بازاحة البرجوازية والوقوف مكانها في مركز العصر ، نجاحا غير طبيعة عصرنا اذ صيره عصر الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية بعد ان كان عصر الاستعمار والامبريالية .**

لا شك في ان مراجعة الخط البياني لاحداث وتطورات المئة سنة الماضية ، على امتداد العالم كله برز بشكل واضح سمة الصعود المستمر لنضال الطبقة العاملة مقابل الهبوط الدائم لحركة البرجوازية . فالاولى تتاصل وتنتصر ، بينما الثانية تهاوى ، ثم تتكمش وتندحر . هذه حقيقة لا يشك فيها غير العاجزين عن الرؤية البليغة ، ولكن من حق جماهيرنا ان تتساءل عن سبب تخلف الطبقة العاملة العربية عن لعب دورها الطليعي في قيادة الثورة الوطنية الديموقراطية العربية ، واقامة نظامها الديمقراطي الشعبي ، بدلا من الانظمة التي اقامتها البرجوازية ؟ .

ان هذا السؤال وجيه وسنجيب عليه ، ولكن بعد ان نحيط بطبيعة الظروف العالمية التي جعلت الفرصة مهيئة لصعود البرجوازية الصغيرة واحتلالها المكان الذي كان ينبغي ان تشغله الطبقة العاملة في قيادة الاحداث الثورية التي عاشتها القارات الثلاث ، ومنها منطقتنا العربية ، خلال الحرب العالمية الثانية وفي اعقابها ، فما هي هذه الظروف ؟.

البرجوازية الصغيرة تقود الثورة الوطنية الديمقراطية

من خلال العرض الموجز لمسيرة الحركة العمالية، يمكن ان ندرك ان قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، بقدر ما مثل انتصارا حاسما للنهج اللينيني الثوري على نهج ابطال الاممية الثانية الانتهازي الذي يصف لينين ابطاله بالكهنة الذين يقومون بتعزية الجماهير ودعوتها للصبر والاستكانة لواقع الاستغلال والاضطهاد بدلا من تحريضها على الثورة عليه . (ان من بعزى العبد ، بدلا من ان يحثه على التمرد ضد العبودية ، لا يفعل غير مساعدة مالكي العبيد .

ان جميع الطبقات التي تضطهد تحتاج ، من اجل الحفاظ على سيادتها، الى وظيفتين اجتماعيتين ، هما وظيفة الجلاد ووظيفة الكاهن. فالجلاد يرتاب عليه ان يقمع احتجاج المضطهدين واستنكارهم . اما الكاهن فيترتب عليه ان يعزي المضطهدين) (٥) .

ان قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى يعتبر ما مثل انتصارا للنهج اللينني الثوري، فانه مثل ، في الوقت نفسه ، بداية مرحلة جديدة من التطور اصبحت معها الرجوازية الامبريالية تعيش حالة انحسار دائم وان كان بطيئا .

فقيام الثورة بحد ذاته انتصارا للبروليتاريا على البرجوازية ، وصمود الثورة كان الصخرة التي تحطمت عليها كل محاولات البرجوازية الامبريالية العالمة الرامية الى سحق الثورة ، تحطما جديدا انتصارا اخر حققته البروليتاريا الروسية ، والذي هو انتصار للبروليتاريا العالمية . (ان الطبقة العاملة وحزب العمال الاشتراكي — الديمقراطي في روسيا قد اعدهما كل تاريخهما للتاكتيك « الاممي » ، اي للتاكتيك الثوري حتى والثوري الى النهاية) (٦) . ثم كانت الحرب العالمية الثانية ووجدت الامبريالية نفسها مرغمة لان تعد بدها « للشيطان » الاشتراكي وتطلب مساعدته والمعاون معه من اجل دحر شرور « الهتلرية » . ودخل الاتحاد السوفياتي الحرب ، دخولا لم يكن العامل الحاسم في دحر النازية والفاشية ، فحسب ، بل انه كان انتصارا جديدا لصالح البروليتاريا العالمية . اذ اتسعت دائرة نفوذ الاشتراكية لتشمل ربع مساحة الكرة الارضية وتدخل في حياة تلث البشرية لتعيد بنائها من جديد ، اعادة جعلت الطبقة العاملة العالمية تقف في مركز العصر وتغير اتجاهات التطور فيه ، وبينما خرجت البروليتاريا الامية من الحرب العالمية الثانية معززة مواقعها بتوسيع وطنها الاشتراكي وتعدد بلدانه لتشكل المعسكر الاشتراكي مقابل المعسكر الامبريالي ، كان العكس من نصيب البرجوازية اذ خرجت منهوكة القوى ، فبريطانيا و فرنسا اصبحا دولا من الدرجة الثانية واليابان والمانيا الغربية قد امسا من الدول الخاضعة لنفوذ الاستعمار الامريكي .

وفي ظروف تعزيز مواقع الاشتراكية اولا ، وضعف مواقع الامبريالية ثانيا ، وما احدثته الحرب العالمية الاولى والثانية من ايقاظ لشعوب القارات الثلاث ثالثا ، والجهد الذي بذلته الاممية الثالثة (الشيوعية) من اجل ترجمة النظرية اللينينة القائلة بامكانية تحول الثورة الوطنية الديموقراطية في المستعمرات واشباه المستعمرات ، الى ثورة اشتراكية دون المرور بمرحلة التطور الراسمالي، شريطة قيادة الطبقة العاملة لها ، رابعا ، في ظل هذه الظروف العالمية التي نشأت عن الحرب العالمية الثانية ، كان الوقت مناسبا لكي تبرز الرجوازية الصغيرة باعتبارها احدى طبقات الثورة ، على مسرح الاحداث الثورية ، لكي تحوض صراعا من اجل فرض اتجاهها الوسطي « الانتهازي » على حركة الثورة الوطنية الديمقراطية في العديد من بلدان القارات الثلاث : اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية خاصة .

ان حركة الحداد التي بلورت ساسيا وايدولوجيا في مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٥ ، والتي حظت بتاييد الامبريالية ، لانها وجدت في نهجها ما يساعد على العمل دون سيطرة الشيوعية على حركات التحرر الوطني في المستعمرات ، ان هذه الحركة ، هي تحليا ملموسا لنزعة البرجوازية الصغيرة الوسطية ونهجها الانتهازي ، ومع ان ابطال الحداد قد حققوا منجزات كبرى على طريق الثورة الديمقراطية ، فيسر انهم مع الفارق طبعا — كما لعبوا دورا مماثلا للدور الذي لعبه ابطال الاممية الثانية في حرف الثورة عن مسارها الطبيعي ، حين قيدوها — وليس بوسعهم ان يفعلوا غير ذلك — بعقود مصالحهم الطبقية البرجوازية التي تتعارض وانطلاق الثورة الوطنية الديمقراطية في الاشتراكية .

وبعد هذه الاحاطة السريعة بطبيعة الظروف العالمية التي هيات الفرصة لصعود البرجوازية الصغيرة واشغالها لمكان الطبقة العاملة، يمكننا ان نتعرض لسبب تخلف الطبقة العاملة عن لعب دورها الطليعي في قيادة الثورة .

الطبقة العاملة العربية والمرحلة الجديدة

ان صعود البرجوازية الصغيرة العربية ونجاحها في اخذ زمام المبادرة بالاطاحة بانظمة العملاء والرجعية واحداث الثورة الوطنية الديمقراطية في العديد من اقطارنا العربي ، يرجع في بعض جوانبه الى الظروف العالمية التي ذكرناها ، بيد انه يعكس في جوانبه الاخرى تخلف الطبقة العاملة عن قيادة الاحداث الثورية المسؤولة عن التغيير الجذري الذي عاشته المنطقة العربية منذ الحرب العالمية الثانية حتى الان . اما تبعة ذلك ، فتقع بالدرجة الاولى على عاتق الاحزاب الشيوعية العربية، التي عجزت عن ان تلعب دورها الطليعي باعتبارها احزاب طبقة طليعية مسؤولة عن اخذ زمام المبادرة في قيادة حركة الجماهير العربية وكفاحها الثوري ضد اعدائها القوميين والطبقيين ، اخذا نفهم معه الجماهير ان الشيوعيين يعتبر ما يكونون خصوم مبدئيون الداء للقومية البرجوازية الشوفينية بكل اشكالها ، فانهم وبالقدر ذاته ليسوا انصارا للدعية القومية ولا يصح لهم ان يصرفوا هكذا ابدا . ذلك (ان مهمة تربية العمال وسائر الكادحين بروح الاممية ، هي من المهام الاساسية لكل حزب شيوعي ، لكن من نظن ، ان ذلك يسمح له وحي بان يبصق على كل المشاعر القومية للجماهير الكادحة ، فهو بعيد عن البولشفية) (٧).

استطاعت الرجوازية الصغيرة ان تستغل نفوذها في المؤسسة العسكرية، في ظل ظروف موضوعية وذاتية عالمية وعربية ، لكي تعتلي مسرح الاحداث ، حاملة شعارات الجماهير ومعبرة عن مشاعرها القومية ورغبتها في الاطاحة بعملاء الاستعمار وبانظمتهم الرجعية ، اعتلاء كرس نهجها الوسطي (الحداد الايجابي) الذي عبرت عنه بشعارها الشهير (**ثورة عربية لا شرقية ولا غربية**) اي ثورة بورجوازية صغيرة وسطية لا اشتراكية ولا راسمالية .

لقد حدث هذا منذ ربع قرن ، فقدمت خلاله القيادات البرجوازية ما تستطيع تقديمه ، فضربت الاقطاع بالاصلاح الزراعي وضربت الراسمالية الكبيرة بالتاميم وقاومت الامبريالية واقامت علاقات مع البلدان الاشتراكية وخاصة الاتحاد السوفياتي ، والخلاصة انها فجرت الثورة الوطنية الديمقراطية وقطعت شوطا على طريق انجاز بعض مهماتها ، بيد ان كل ماحققته، ظل دون ما كان يمكن ان يتحقق ، فقد حصرته في نطاق توسيع قاعدتها الطبقية ومصالحها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . حصرا مع انه اقام راسمالية الدولة ولكنه ابقى الاقطاع والراسمالية الكبيرة قوة اقتصادية كامنة في الريف والمدينة ، تبذل جهدها لاجهاض الثورة والعودة بها القهقرى ، ومع الايام بدات تتغلغل فئة الحاكمين عن قاعدتها البورجوازية الصغيرة ، انفصالا قربها من بقايا الطبقات الرجعية لتشكل وايابا طبقة برجوازية جديدة ، (برجوازية الدولة) ، بقدر ما تسعى لتصفية منجزات الثورة ومفاهيمها وشعاراتها ، فانها سوف تسعى لاقامة نظام راسمالي متخلف مرتبط بالراسمالية العالمية ، سعيا من شانه ان يزيد من افقار الجماهير وبرفع وتيرة اضطهادها وشقائها ، مما يوفر ظروفا اكثر نضجا لحتمية استلام الطبقة العاملة للسلطة. ان المرحلة الجديدة تتميز بظواهر اهمها ما يلي :

اولا — التسوية السياسية للقضية الفلسطينية وحركة التحرر الوطني العربية .

ان الحركة الصهيونية التي نجحت في تحقيق امالها باغتصاب فلسطين واقامة اسرائيل بعد تشريد الشعب الفلسطيني ، في عام ١٩٤٨ . تحاول اليوم الاقراب من النجاح في اسكمال هدفها بحصول الاعتراف العربي الرسمي بالكيان الصهيوني الذي اقامته في قلب الوطن العربي ، ليكون قلعة للاستعمار والراسمالية العالمية ، وبامكاننا ان نتصور ردود الفعل لدى الجماهير العربية قد الحكومات والقوى السياسية التي تقترف جريمة الاعتراف باسرائيل والتنازل عن فلسطين للحركة الصهيونية .

ان الموقف من التسوية السياسية التي هي تسوية استسلامية تفتح الطريق واسعة امام النفوذ الامبريالي في المنطقة من جديد بعد ان تقلص نفوذه كثيرا في المرحلة الماضية ، من شانه ان يعيد تشكيل حركة التحرر الوطني العربية بحيث تنتقل قوى من هذه الحركة الى صف الامبريالية واسرائيل والرجعية العربية بعد ان تضيق شقة التناقض الثانوية فيما بينها ، وتتضاءل الخلافات التي ما زال تحل حجما بعرقل ولو جزئيا اخراج صفقة التسوية — المؤامرة بشكل النهائي ، وعندما تتم عملية الانتقال هذه — وهي سوف تتم حتما الا اذا حدث ما ليس موقعا حدوثه الان — فان وحدة المضادات التي تمثل اسرائيل ومعها الامبريالية الامريكية طرفها الرئيسي في المنطقة ، بينما تمثل حركة التحرر الوطني العربية بكل فصائلها الحالية ومعها الاتحاد السوفياتي وسائر البلدان الاشتراكية طرفها الثاني ..

ان وحدة المتناقضات هذه ستتشكل على اساس جديد بعد ان تنتقل **القوى المستسلمة** الى معسكر الامبريالية والرجعية والصهيونية لتقف ضد القوى الرافضة للاستسلام للامبريالية والاعتراف باسرائيل ، وسوف يشتد الصراع بينهما ، اشتدادا من شانه ان يعيد بعض **القوى التقدمية المتورطة** الان بالسير في طريق التسوية — المؤامرة ، الى صف القوى الرافضة ، وبذلك ياخذ الصراع **مجرا جديدا** تصبح معه حركة التحرر الوطني العربية ، متحررة من القوى اليمينية من جهة ومنطلقة نحو مهماتها الثورية التي تتصدرها مهمة تصدي الطبقة العاملة العربية وقواها التقدمية الثورية **لقيادة المرحلة الجديدة** من جهة ثانية.

ثانيا — الطبقة العاملة العربية ومهمات المرحلة الجديدة .

ان الثورة الوطنية الديمقراطية العربية ، التي تعاني من الارتداد والانتكاس بسبب هيمنة قوى الثورة المضادة عليها .. انهذه الثورة التي قطعت شوطا بعيدا في طريق انجاز مهماتها ، تقف اليوم في مازق التراجع عن كل ما حققه ، بالتخلي عن التاميم والاصلاح الزراعي وعودة الاقطاع والراسمالية الكبيرة . (وهذا الامر متعارض مع طبيعة التطور الذي فطمه البلدان العربية المقصودة وخاصة مصر) ، اذ انه سوف يعرضها الى هزة اقتصادية تتجم عن طبيعة الانفال من هيمنة القطاع العام وراسمالية الدولة التي هيمنة الراسمال الخاص والملاك العقاريين والاقطاعيين ، رغم حجم الفروض والاموال التي سندفق عليها ، وفي مثل هذه الاوضاع تصبح مسالة انتقال الثورة من مازقها مسالة مطروحة على الطبقة العاملة لكي تقوم بتصحيح الارتداد وتكمل مهمات الوطنية والديمقراطية اسكمالا بوعي الاساس المادي والتكتيكي الذي يمكن للثورة الوطنية الديمقراطية ان تباشر معه مهمة البناء الاشتراكي على اوسع نطاق .

---

(١) فريدريك انجلس مقدمة البيان الشيوعي — المختارات — المجلد الاول ص ٤٦ .

(٢) ماركس انجلس — المختارات المجلد الاول دار التقدم — موسكو — ص ٤٧ .

(٣) في الحمية الوطنية الموحدة — المقدمة ص ٢٣ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) لينين — افلاس الاممية الثانية ص ٢٧ .

(٦) لينين — المرجع السابق — ص ٧٥ .

(٧) جورجي دميتروف في الحمية الوطنية — ص ١١٦ ..